سيميائية تمثلات المجذوب في المجتمع المحلي

فضاء الشيخ عبد الرحمن النعاس بمدينة الجلفة –أنموذجا-

Semiotic of the Mejdoub representations in the local society

Abderrahman Naas's Space in Djelfa City –as model-

Dr. Abdelkader Homida

الدكتورعبد القادرحميدة*

أستاذ محاضر "أ"، جامعة زيان عاشور بالجلفة، a.homida@univ-djelfa.dz

تاريخ الاستلام: 2021/11/10 تاريخ القبول: 2024/05/08 تاريخ النشر: 2024/06/27

ملخص:

يشكل الجذب نوعا من الجنون الذي يحظى بالتقديس في المجتمعات العربية الإسلامية عموما، وفي شمال إفريقيا خصوصا، وهو عند الصوفية مرتبة سماها البعض منهم الجنون الصوفي la folie mystique، ولأن هذا الجنون متعدد الأبعاد، ثقافيا واجتماعيا، فإن التمثلات له أيضا متعددة ومتشعبة، وبغية فهم البعض من هذه التمثلات التي تعج بها فضاءات الجذب، والمؤسسة لهوية المجذوب السوسيو-ثقافية، فإننا سنختار فضاء المجذوب الشيخ عبدالرحمن النعاس بورقبة (1905-1993) لما له من أهمية سوسيولوجية، كونه ما يزال مستمرا، وما تزال آليات الهيمنة والخضوع داخله تنتج ويعاد إنتاجها (كما لو كان الشيخ ما يزال حيا موجودا في غرفته). ولأن الغاية هي الفهم، فان الرؤية ستؤطرها مقاربة يورغن هابرماس Jurgen Habermas (1929) الما-بعد حداثية، وسنستدعي من المقاربات النظرية ما يساعدنا على ذلك، وفي مقدمة المقاربات سنحرص على ثلاث مقاربات أساسية، أولها مقاربة بيير بورديو Pierre Bourdieu (1930-2002) التي ستساعدنا في رسم معالم الهيمنة والخضوع في الفضاء، وذلك بالاستعانة بأهم مصطلحاتها مثل "الرأسمال الرمزي" capital symbolique، وإعادة الإنتاج

* **المؤلف المرسل:** د. عبد القادر حميدة، **الإيميل:** a.homida@univ-djelfa.dz

Reproduction، والسلطة الرمزية Autorité Symbolique، والهابيتوس Habitus، وثانيها المقاربة السيميوطيقية وفق ثلاثية شارل سندرس بيرس (1839- 1914) Charles Sanders Pierce، والمتمثلة في "التمثيل- التواصل- الدلالة" وهي التي ستشكل هيكل التحليل في هذا المقام، ثم ثالثا وأخيرا تأتي نظرية "التمثلات الاجتماعية" وفق مقاربة جان كلوك آبريك (1941-2012) Jean Claude Abric المعروفة بأطروحة النواة المركزية Noyau central، والتي ستمكننا من مساءلة مختلف التجليات المورفو-سوسيولوجية المرتبطة بالمجذوب، مثل لباسه وجسده وصوره الفوتوغرافية، أو السباسيو-سوسيولوجية المتعلقة أساسا بالفضاء المحلي.

كلمات مفتاحية: المجذوب، الفضاء، الهيمنة والخضوع، النواة المركزية، المجتمع المحلي.

Abstract:

The Djedb is a kind of madness which is sanctified in Arab Islamic societies in general, and in North Africa in particular, and in Sufis it is a “makam”, which some of them have called “mystical madness”. And because this madness is multidimensional, cultural and social, the representations are also multiple and complex, and to understand some of these representations which are manifested well in these spaces, and well reflect the socio-cultural identity of the Majdoub, we have choose the space of Majdoub Sheikh Abderrahman Naas Bouragba (1905-1993), because of its sociological importance, because his dunamism is still in progress, and the mechanisms of domination and submission are are always produced and reproduced (As if the sheikh was alive and present in his room). And to arrive at this understanding, we adopted three basic approaches, the first of which is the so-called “symbolic” approach of Pierre Bourdieu (1930-2002), which helped us to draw the parameters of domination and submission in the space, using the most important concepts such as “Symbolic Capital,” “Reproduction”, “Symbolic Authority” and “Habitus”, and the second is the semiotic approach according to Charles Sanders Pierce (1839-1914), represented by "representation - communication - meaning" which formed the structure of our analysis, and at the end we also convened the third approach which we can call the

theory of "social representations", according to the approach of Jean Claude Abric (1941-2012), or the “Central Core” thesis, which allowed us to take into account the different sociological manifestations of the Mejdoub, such as his clothes, his body and his photos.

Keywords: Mejdoub (Our own translation of the concept), Space, domination and submission, the central core, symbolic power , local community.

Résumé :

Le Djedb est une sorte de folie qui est sanctifiée dans les sociétés islamiques arabes en général, et en Afrique du Nord en particulier, et i lest chez soufis un “makam”, que certains d'entre eux ont appellent “la folie mystique”. Et parce que cette folie est multidimensionnelle, culturelle et sociale, les représentations sont aussi multiples et complexes, et pour en comprendre quelques-unes de ces représentations qui se manifestent bien dans ces espaces, et reflètent bien l'identité sociocultural du Majdoub, nous avons choisis l'espace de Majdoub Sheikh Abderrahman Naas Bouragba (1905-1993), en raison de son importance sociologique, car son dunamisme est toujours en cours, et les mécanismes de domination et de soumission sont sont toujours produites et reproduites (Comme si le cheikh était vivant et présent dans sa chambre). Et pour arrive à cette comprehension, on a adopté trois approches de base, dont la première est l’approche dite “symbolique” de Pierre Bourdieu (1930-2002), qui nous a aidé à dessiner les paramètres de domination et de soumission dans l'espace, en utilisant les concepts les plus importants tels que “Capital symbolique,” “Reproduction”, “Autorité Symbolique” et “Habitus”, et la seconde est l'approche sémiotique selon Charles Sanders Pierce (1839-1914), représentée par "représentation - communication - signification" qui a formé la structure de notre l'analyse, et à la fin on a convoqué aussi la troisième approche qu’on peut nommer la théorie du «des représentations sociales», selon l'approche de Jean Claude Abric (1941-2012), ou la these du “Noyau Central”, qui nous a

permet de tenir compte des différentes manifestations sociologiques du Mejdoub, telles que ses vêtements, son corps et ses photos.

Mots clés : Mejdoub (notre propre traduction du concept), espace, domination et soumission, noyau central, violence symbolique, société locale.

1- مقدمة:

كانت محاولة ميشال فوكو Michel Foucault (1926- 1984) في كتابه "تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي" Histoire de la folie à l'âge classique (1972) من بين أولى المحاولات العلمية الجادة لتفكيك العلاقة بين الجنون والعقل خلال فترة زمنية محددة، محاولة حفرية نقدية عرفها "آلان توران" Alain Touraine (1925) حين تعرض لنشاط فوكو النقدي بأنها "رفض الاعتقاد في كل التأويلات ابتداء من التبرير الذي يقدمه الفاعل على نشاطه إلى غاية المعنى المتجسد في التصنيفات الإرادية التي تبدو على أنها بعيدة من أن تكون محملة بالنوايا" (Touraine, 1974, p. 29). لقد ساءل فوكو الجنون وفكك أساليب عزله، وتطرق لعلاقة الجنون بالأدب، والفن، والمقدس. لقد اقترب من الجذب لكنه لم يخصص له دراسة ترسم لنا معالم الطريق.

ومنه فإن محاولتنا هذه قد تكون تطويرا لجهود "فوكو" في مساءلة "الهامشي" و"المهمش" و"اللا مفكر فيه"، لكنها ضمن نسق مغاير، بمقاربات مغايرة، وفي إطار سياق اجتماعي ومعرفي مختلف تماما، مختلف في بنائه، وفي مخياله، وفي الرؤى التي يكونها حول العالم، ومنه في تمثلاته. إنه سياق المجتمع المحلي (أي منطقة مدينة الجلفة وما جاورها)، محاولة تجتهد وتحفر في طريق صعبة لكونها طريقا بكرا، وتحاول في الأساس أن تقرأ قراءة سيميوطيقة للتمثلات الاجتماعية الموجودة داخل فضاء المجذوب الشيخ عبد الرحمن النعاس بورقبة، التي يكون المريدون المركزيون المرتادون للفضاء بصفة دائمة هم فاعلوها الرئيسيون، المنتجون لها، والذين يسهرون على إعادة إنتاجها بغية استمرار الرأسمال الرمزي وفق آليات هيمنة وخضوع يمكن إدراك بعضها من خلال "الملاحظة بالمشاركة"، مما يجعل الموضوع بمثابة مجازفة معرفية، محفوفة بالمخاطر، في حقل سوسيو-أنثربولوجي بكر.

2-من هو المجذوب النعاس: في سبيل سيرة ممكنة:

ولد الشيخ عبد الرحمن النعاس بن إبراهيم بورقبة عام 1905م، في أرض آبائه وأجداده المتاخمة لمدينة الجلفة بالجزائر (اليوم أصبحت تلك المنطقة جزء من المدينة بعد أن وصلها العمران). ونشأ نشأة

بدوية، صافية، خالصة، بكل ما تحمله صفة "البداوة" من قيم الشجاعة والنخوة والكرم والوفاء، وبعد أن شب اشتغل في دكان مواد غذائية، يبيع بالجملة بجانب السوق المغطاة في وسط المدينة، وكان الشيخ الشلالي الزهدي (أول مجذوب تحفظه ذاكرة المدينة وهو المسمى الشلالي شكري بن عطية بن بلقاسم ولد حوالي 1852م، نشأ في البادية دخل مدينة الجلفة حوالي 1920، وكانت وفاته سنة1941م، حسب البعض، وسنة 1945م حسب البعض الآخر، ومنهم محمد ابراهيمي أحد المريدين القدامى.) كان هذا الزهدي المذكور، دائم التردد على ذلك المحل، حيث كان يجلس عند عتبته، وكأنه كان المؤشر الثاني لكون هذا الرجل المسمى "النعاس"، البائع البسيط، سيكون مجذوبا، وليا من أولياء الله، أي سيكون خليفة للشيخ "الشلالي"، والمؤشر الأول كان قبل ذلك بزمن بعيد، وذلك حينما كان طفلا رضيعا، ويتمثل هذا المؤشر فيما يتداوله المريدون في الفضاء، من أن الشيخ "عبدالرحمن النعاس بن سليمان" أرضعه من ثديه مرة في زيارة لأهله، وحينما صار الشيخ النعاس شابا يافعا تزوج من امرأة من قبيلة "النواورة"، ولم تمكث عنده طويلة إذ ما لبثت أن تم نزعها منه مخلفة له ابنة وحيدة سماها "عائشة" (وما تزال على قيد الحياة)، ويبدو أن انتزاع هذه الزوجة منه سيكون السبب المباشر لجذبته، حيث سيهيم على وجهه في البراري، وسيقيم تحت جسر صغير بالبادية، بمنطقة تسمى "الزريقة". وحينما ذهب أخوه "أحمد" باحثا عنه، ووجده هناك، محاطا بمجموعة من الأفاعي تحرسه، قال له الشيخ: "عد يا أخي للجلفة، وحينما يحين وقت دخولي للمدينة سأجيئ، فلا تقلق علي.". حينها علم "أحمد" أن أخاه صار له شأن آخر لقد "دخل في الدالة" -كما يقال في المجتمع المحلي-، وما لبث بعدها "الشيخ النعاس" أن دخل المدينة ماشيا في شوارعها، داخلا لهذا البيت أو ذاك، متمتما بكلام يكون أحيانا غير مفهوم (النحو). فسكن حينا عند "السعدية المايدية"، وحينا آخر عند "أم هاني" زوجة الشيخ عبدالرحمن بن الطاهر، ثم استقر (مع كلابه التي كانت تتبعه ينما حل وارتحل) عند عمه "الشيخ الرب"، بقي هناك سنوات ثم انتقل إلى منزله بضواحي الجلفة، ومكث داخل غرفته منذ عام 1979م، ولم يغادرها إلى غاية وفاته يوم الأربعاء 07 أفريل 1993م.

أثناء هذه الرحلة الحياتية، ظهرت على الشيخ النعاس علامات صلاح، وجذب، وولاية. وصار الجميع في المجتمع المحلي (أي مدينة الجلفة وضواحيها) يعرف أن هذا الرجل صاحب كرامات، فكانوا يهرعون إليه في الشدائد، ويعرضون عليه مختلف أمانيهم ورغباتهم، فعالج الكثيرين، وقضى حوائج الكثيرين، حتى صار يلقب ب"سلطان البلاد"..

3. حالة الأمكنة: حدود فضاء الشيخ:

سنقسم الفضاء بمعناه المكاني إلى مكانين رئيسيين، وذلك تبعا للطقوس التي يقوم بها المريدون والزوار فيهما، المكان الأول هو الحوش والساحة التي أمامه وهو الأصل، أما المكان الثاني فهو القبة والضريح وهو الفرع. وفي تحديد معالم المكان الأول يمكننا القول بأنه حوش مبني بالحجارة على الطراز التقليدي، وسطحه من القرميد الأحمر، يحوي خمس (05) غرف داخلية، وغرفة الشيخ الرئيسية، وهي الغرفة الضيقة نوعا ما، التي توجد على يمين الداخل مباشرة، وهي التي قال عنها الشيخ: "هذي الجنة واللي تنفس فيها والله ما يخاف"، حيث نجد داخلها سرير الشيخ، وعلى جدارها المقابل لباب الدخول، الباب الخشبي الواطئ أخضر اللون، تقابلنا "صورة الشيخ" داخل إطار مذهب. وعند قدم السرير توجد "القبارية"، وهي سرير آخر مغطى تماما بالأزر. وأمام سرير الشيخ توجد مائدة تسمى "البيرو"، وهي التي يضع عليها الزوار طلباتهم وملفاتهم أو زياراتهم، وعلى يمين البيرو توجد "عين الحياة"، وهي حفرة أمر الشيخ بأن تظل تسقى بالماء يوميا، وأن التوقف عن ذلك معناه نهاية العالم، فهي العين التي تمد العالم بالحياة –حسبما يتمثلها المريدون- وأمام المائدة توجد أفرشة للزوار ومقاعد خشبية تستند إلى الحائط.

وفي الساحة أمام الحوش، توجد غرفة المخزن (التي كان أخوه "عثمان" يضع فيها المؤونة ومختلف أنواع الزيارات من أطعمة وألبسة وغيرها)، وهي الغرفة التي تم فيها تغسيل الشيخ يوم وفاته. كما توجد على يمين باب الحوش غرفة واسعة أخرى لمبيت الزوار من الرجال والذكور، وإطعامهم أحيانا حينما تضيق غرفة الشيخ بهم. وفي الساحة توجد أيضا "البئر" التي حفرها أحد الولاة للشيخ، وعليها مخزن ماء كبير، وهي التي عندها يتم ذبح الذبائح، تلك التي كان الشيخ يأمر بها، وتلك التي ما تزال تذبح إلى الآن، خلال "وجبة معروف" أو أثناء الاحتفالات المختلفة مثل الاحتفال المركزي "ذكرى وفاة الشيخ" من كل عام.

أما المكان الثاني فيتكون من القبة والضريح وما جاورهما، حيث يوجد خلف قبة الشيخ مكان يسمى "مقام سيدي محمد بن أبي القاسم" (الشيخ محمد بن ابي القاسم (1897/1824): هو محمد بن أبي القاسم بن ربيح، ينتهي نسبه إلى إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر، إلى فاطمة ابنة رسول الله، وهو مؤسس زاوية الهامل توفي الشيخ رحمه الله سنة 1897م ودفن بزاويته المعمورة. للمزيد من التوسع في سيرته، انظر: (سعدالله، 1998، صفحة 160)، وهو الذي وقف فيه الشيخ المذكور أثناء زيارته للجلفة، أما قبة الشيخ فقد بناها المقاول المرحوم "حمروش"، وقسمها إلى غرفتين: "غرفة الضريح" حيث يوجد ضريح الشيخ، عليه بناء خشبي مغطى بالأزر، و"غرفة أخرى" بجانبه تتخذ كمخزن لمختلف الأعطيات. وأمام

القبة هناك "قبة أخرى" فارغة بلا ضريح، بنتها عجوز تلقب ب"الوعيلة" أثناء حياة الشيخ، وأخبر الشيخ أثناء حياته برفضه لأن يدفن فيها، فأصبحت تتخذ كمطبخ في مختلف مناسبات "وجبة المعروف". ويشرف على هذا المكان المقدم "علي بورقبة" (علي بورقبة عمه الشيخ النعاس، فوالده هو "أحمد" المتوفى سنة 1986م، وهو من مواليد شهر جويلية 1952، أب لسبعة أبناء، عمل موظفا في محافظة الغابات بولاية الجلفة، ثم في مديرية الري بذات المدينة، تقاعد في سنة 2013، وهو يسكن حاليا في المكان الثاني رفقة عائلته، بجانب قبة الشيخ ويقوم على خدمة زوار الضريح). في حين تشرف على المكان الأول "الخونية مسعودة" (الخونية مسعودة بورقبة هي مقدمة المكان الأول من الفضاء (غرفة الشيخ وحوشه والمساكن المحيطة به) وهي ابنة أخ الشيخ عمها الشيخ النعاس، فوالدها هو "علي" المتوفى سنة 1989م، أعادت بعث المقام بعد فترة ركود قصيرة، إثر رؤيا رأتها، فحواها أن الشيخ يأمرها بأن تترك عملها في المستشفى وتلتحق بمقامه تقيم فيه وتقوم على خدمة زواره).

4. ثلاثية بيرس وتمثلات المجذوب الشيخ النعاس:

إن التمثلات –حسب هابرماس- هي التي تؤثث الواقع، وهي التي تمكننا من الوعي به، إنها أداة التواصل في الفضاء العمومي، وأداة الحوار والاتفاق، ومنه فهي الركيزة الأساسية التي تقوم عليها "الفاعلية التواصلية"، ذلك أن مفهوم "الفضاء العمومي" عنده يعتبر مفهوما متجاوزا للنقد الكانطي، حيث يقول: "إنني أستطيع أن أؤكد هنا، ودون أدنى مجال للشك، أن التداولية الكانطية، تعود بأصولها إلى واقعية بدون تمثلات" (هابرماز، 2010، صفحة 62). والنقد الكانطي –كما نعرف- هو محاولة تأطير "الميثوس" في حدود "اللوغوس"، وخاصة في تمثله للدين وحدود العقل.

وعليه فإن الرؤية التي تؤطر عملنا في مثل هذه الفضاءات التي وصفناها ب"الهابرماسية"، ستكون منتمية إلى تيار "الحداثة التي لم تكتمل" –بتعبير هابرماس- أو ما بعد الحداثة –بتعبير فوكو وزملائه- وهي رؤية مناسبة لفضاءات "الهامش" عموما، ولفضاء الجذب خصوصا.

أما بالنسبة للمقاربة السيميوطيقية فإننا تبنينا ثلاثية "شارل ساندرس بيرس" المتكونة من: التمثيل، التواصل، والدلالة، "وإذا كنا سنأخذ بالنظام البيرسي كمرجع، فهذا راجع إلى أن طابعه الثلاثي (Triadique)يتيح لنا إدخال بعض التلوينات في التحليل العلاماتي، هذه التلوينات التي انتبه إليها سوسير

في بعض الأحيان، ولكن الطابع الثنائي لنظامه، لم يسعفه في التعبير عنها" (دولودال، 2004، الصفحات 57- 58)، وسنسعى بذلك إلى فهم أعمق للتمثلات داخل المجتمع المحلي وفق هذه المعطيات.

فالتمثل المركزي للمجذوب هنا هو المجذوب نفسه، كونه "النواة المركزية" Noyau central التي تدور حولها بقية التمثلات، أي كونه "مجذوب" ويستمد هذا التمثل "تمثيله" –حسب بيرس- من أبنية صغيرة شكلته، منها كون "المجذوب النعاس"، قد بشر به الشيخ النعاس الأول "عبدالرحمن النعاس بن سليمان دفين دار الشيوخ" وأرضعه من ثديه -كما يحكى- ثم منحه اسمه، وكون الشيخ "الشلالي" بعد ذلك قد كان يداوم الجلوس عند عتبة باب دكانه في وسط مدينة الجلفة مقابل السوق المغطاة، ويظهر هذا "التمثيل" أيضا من خلال أقواله "هو نفسه عن نفسه"، أي في بناء "هويته الجذبية"، حيث يتمثل المريدون كثيرا من الأقوال، والتي من بينها قوله: "عايش بالبلوط في الغابة السودا، وحياتي عديتها بين الكيفان"، وقوله: "عمري سطاعش ميات سنة" (أي 1600 سنة)، وقوله: "راني ساكن في وجدة غربي فاس"، وقوله: "اللي درتها أنا ما دارها اللي قدامي وما يديرها اللي بعدي"، في إشارة صريحة منه إلى تفرده.

ولحكاية الكرامة Récit du Karama دور رئيسي في بناء هوية المجذوب، وبالتالي فإنها ستشكل عاملا لا غنى عنه في بناء "التمثيل" لهذا التمثل المركزي، وعليه فإننا إذا استقرأنا فضاء المجذوب "الشيخ النعاس"، فسنجده يعج بمثل هذه الحكايات، وسنقتصر هنا على واحدة منها، وهي تلك التي رواها لنا المريد "عبدالقادر –ب":

"كان الشيخ النعاس في بداياته -قبل أن يستقر نهائيا في حوشه- يمكث أحيانا في هذا البيت أو ذاك، عند هذه العائلة أو تلك، فبيوت المدينة كلها كانت مفتوحة أمامه، بحفاوة وبهجة، وخاصة بيت (السعدية المايدية) و(بيت أم هاني زوجة الشيخ عبدالرحمن بن الطاهر)، وحدث ذات يوم أن كان عند هذه الأخيرة فزارتها امرأة عجوز، فلما رأت هذا الدرويش عند أم هاني، سخرت منه، وقالت لها لماذا تستقبلين المجانين في بيتك، وكان الشيخ لحظتها في زاوية الدار قرب مدخنة نار الحطب يتدفأ، فلما تجاوزت تلك العجوز حدودها، نادى الشيخ في أم هاني قائلا: ها تيلي المقاطوس (وهو زيت سام يقتل في لحظته)، فأتت به "أم هاني" وهي لا تدري ما "الشيخ" صانع به، فقال لها ضعيه في كأس ماء، ففعلت، ثم قال لها: اشربيه، فقالت له يا الشيخ هذا سم قاتل، قال قلت لك اشربيه، كل هذا والعجوز التي سخرت منه تتفرج على قمة الجنون في لحظة جنونية، إذ حاولت أن تمنع "أم هاني" من تنفيذ هذا الأمر القاتل، "أم هاني" خديمة الشيخ ومريدته ولا يمكنها أن ترفض له طلبا حتى ولو كان فيه موتها، فسمت باسم الله

وشربت كأس السم، بعد لحظات غادرت العجوز البيت وهي تحوقل متعجبة من سذاجة "أم هاني" وحتى لا أيضا تكون شاهدة على هذا الجنون، لكن حدث أنه ما إن تجاوزت عتبة البيت وسارت في الشارع حتى سقطت ميتة، وهكذا شربت "أم هاني" السم ولم يحدث لها شيء، بل الموت زار تلك العجوز الساخرة من ولي الله".

هذا نزر من أقوال كثيرة وحكايات كثيرة قالها الشيخ المجذوب النعاس عن نفسه، أو فعلها بنفسه، ترسم لنا "تمثيل" مجذوب متميز، وتمكننا من الانتقال بسلاسة ويسر إلى العنصر السيميوطيقي الثاني في ثلاثية بيرس، ألا وهو التواصل.

أما "التواصل" في المقاربة السيميوطيقية فهو الدور الذي يقوم به التمثل نفسه، وهذا "يرجعنا إلى المعنى الذي يشكل قاعدة التأويل في نظام علامات مؤولة" (دولودال، 2004، صفحة 53). فللمجذوب الشيخ النعاس تبعا لذلك دور اجتماعي، بقضائه لمختلف الحوائج، واستجابته لمختلف الرغبات، يحقق النجاح لطالبه، والغنى لسائله، ويوفر الوظيفة، ويعيد الغائب لموطنه وأهله ويجد الشيء الضائع ويشفي من مختلف الأمراض، ويكفينا مثالا على ذلك أن نسرد حكاية "شفاء بلعطرة":

"حدثنا المريد قويدر بورقبة قال: أصيب الحاج (المختار-ب) المعروف حينها بـ"طالب الشناين" لأنه درس القرآن الكريم للشناين وهم عائلة الشيخ النعاس باعوجاج في فمه وشلل نصفي أقعده الفراش مدة ثلاث سنين، فلم يدّخر أهله جهدا طلبا لشفائه، حيث قصدوا الأطباء في قسنطينة وتونس، والمعالجين الشعبيين من رقاة وغيرهم في تقرت وأدرار، والقرارة، فزاروا، وطببوا وعالجوا، وذات يوم قادتهم نيتهم إلى الشيخ النعاس و(الزائر نية والأوليا نفحات)، فأتوا به، ولم يكونوا يحملونه إلا داخل الأغطية (الزاورة)، وكان معه أحد أنسابه، وزوجته وابنه، ووضعوه أمام الشيخ الذي كان متكئا، وما إن رآهم حتى استقام جالسا ثم نادى فيه قائلا: "يا المخطار.. يا المخطار.. اقرأ ياسين"، ولم يكن لحظتها يسمع جيدا أو يتكلم، فبدأ المختار يتمتمها بصوت مهموس حتى أتمها أي وصل إلى قوله تعالى: "فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون"، حينها ضحك الشيخ النعاس وتمعن فيه ثم قال: "ائتنا بخروف حنيذ مشوي ونداووك" (جيبنا خروف مصور ونداووك)..

فأخبر المريدون أهله بما قال الشيخ، فلم يلبثوا ساعة زمن حتى كان الخروف موضوعا فوق البيرو (مائدة الشيخ) فلمسه الشيخ بأصبعه وذاقه، ثم قال ضعوه في المدخنة (الموجودة في الركن الغرف

الجنوبي الشرقي) ثم بعد مدة زمنية قال الشيخ: اضربوا "الكليرو" بمعنى اقرؤوا القرآن وترنموا بالقصائد.. قال المريد قويدر فأنشدنا قصيدة أو اثنتين، بعدها نادى فيهم الشيخ: حطوا لخاوتكم ياكلوا.. أي اعطوا لإخوتكم الزوار والمريدين والحاضرين فليأكلوا من هذا الخروف، فامتدت اليه الأيدي لكن الشيخ لم يأكل، وما إن حل وقت الصلاة حتى قال الشيخ: يا الأحباب.. راه الوقت.. دياركم ومطارحكم..

قال قويدر: فانصرف الناس وبقيت أنا فناديت جمال والغول لنحمله فصرخ فينا الشيخ: تسلفني.. هيا يا المختار دارك ومطرحك، قال فبدأ المشلول يتحرك بارتعاش، وما هي إلا لحظات حتى قام معافى، وقد شفي من مرضه تماما.. نعم.. حيث أصبح بعدها عضوا في محافظة الحزب، وتزوج ثلاث مرات، وأصبح رئيس بلدية ثلاث عهدات متتالية وحج بيت الله الحرام".

وطبعا يعج الفضاء بحكايات شفاء وقضاء حوائج كثيرة لكنها لا تختلف في بنيتها عن هذه الحكاية، وهكذا ومن خلال ما سبق نجد أن التواصل قد تحقق –كما يرى بيرس- من خلال الدور الذي يقوم به التمثل، ولم يبق لمقاربة سيميوطيقية التمثلات سوى تحليل العنصر الثالث والأخير ألا وهو الدلالة.

وتأتي "الدلالة" أخيرا كحديث عن وجود طقوس متجاوزة للحكايات والأقوال وكل أنواع الكلام، متمثلة في تلك الحركات المنظمة والواجبة والقارة التي يقوم بها المريدون، والتي يمكن ملاحظتها ومراقبتها وممارستها. وهي "لعبة لها قواعدها، ومعنى الحركات له طابع عمومي، لأنها الحركات هي نفسها" (دولودال، 2004، صفحة 53) بالنسبة لكل مريد أو زائر، ومنه فإن وجود بعض الطقوس الممارسة داخل الفضاء هو نفسه عنصر "الدلالة" في بناء سيميوطيقا "النواة المركزية" بالنسبة لشارل ساندرس بيرس، ومن بين هذه الطقوس في فضاء المجذوب "الشيخ النعاس" طقس "عين الحياة"، وهو عبارة عن حفرة عند سرير الشيخ تسقى يوميا بالماء ولا يتركها المريدون تجف أبدا، حتى في سنوات العشرية السوداء التي عرف فيها الفضاء نزوحا للمريدين عنه فانه كان هناك من يتسلل الى دار الشيخ ويسقي حفرة "عين الحياة"، وذلك للمعنى الذي يتمثلونه لها. والمعنى العام هنا مفاده أن "الشيخ" كان قد صرح للمريدين أثناء حياته أن هذه العين هي التي تحفظ العالم من الانهيار والدمار ، وأنه إذا ما توقفوا عن سقيها ولو يوما واحدا فان الحياة على ظهر هذه الأرض وفي هذا الكون ستنتهي، ومن هنا يأتي السر في تسميتها ب"عين الحياة"، أي العين التي تضمن استمرار الحياة، إن هذا الطقس ما يزال مستمرا إلى اليوم، بل هناك من يضع البخور أيضا داخل الحفرة، تعطيرا وإطعاما للأرواح التي تقوم على خدمة هذه الحفرة –حسبما صرحت لنا الخونية مسعودة-.

5- ثلاثية بيرس والعناصر المحيطية في فضاء المجذوب الشيخ النعاس:

تحيط ب"النواة المركزية" عناصر أخرى، يسميها "جان كلود آبريك" "العناصر المحيطية" Eléments périphériques، وهي متعددة ومتداخلة لا يمكن حصرها، بل يمكن تقسيمها إلى فئتين رئيسيتين: فئة مرتبطة بآليات الهيمنة داخل الفضاء مثل: صناعة الخوف، رسم الحدود والجزاء، وفئة ثانية مرتبطة بآليات الخضوع مثل التسليم والامتثال.

وسنكتفي هنا باختيار "عنصر محيطي" واحد، لنطبق عليه ثلاثية بيرس، وهو "رسم الحدود"، ذلك أن تمثل الحدود ليس منفصلا عن تمثل الجزاء والعقاب، فغالبا ما يكون الجزاء والعقاب مرتبطا بالحد أي الخط الفاصل والحدود، وتجاوز الحدود يستلزم وجود سلطة ما، تقدم الثواب والأجر والفوز للذي احترمها ولم يتجاوزها، وتعاقب، وتحرم، وتصيب بالأذى من يتجاوزها، إن مسألة الحدود مسألة مفصلية في التمثلات الاجتماعية عامة، وفي فضاء الجذب في المجتمع المحلي بصفة خاصة، ومنه فإن أي سلطة ما، تستعمل هذه الآلية وتتخفى وراءها، إن الفرد يحترم الحدود لإدراكه لوجود سلطة، تجازيه أو تعاقبه، ولذلك صرحت الباحثة المغربية فاطمة المرنيسي (1940-2015) بأن "الحدود لا توجد إلا في أذهان الذين يملكون السلطة" (فاطمة، 1998، صفحة 11) فهي إذن مسألة جوهرية في علاقة الفرد بالسلطة، ومنه -نضيف نحن- في علاقة الشيخ بالمريد.

ولمحاولة تطبيق ثلاثية "بيرس" على تمثلات المريدين في فضاء الشيخ النعاس للحدود، نشرع أولا في الحديث على عنصر "التمثيل" بمعنى هوية هذه الحدود، وبما أنها "عنصر محيطي" فهي حتما تدور في فلك "النواة المركزية" التي هي المجذوب نفسه، وباقترابنا من المريدين عرفنا أنهم يرون الشيخ متجاوزا للحدود، الحدود الشرعية مثلا، فهو من علماء الحقيقة مثل السيد الخضر الذي جاز له بأمر مباشر من الله أن يقتل الطفل، والشيخ النعاس –حسبما روى لنا أحد المريدين- قال: (ربي ما يحاسبش الطيورة على رووس لوعال)، فهو الطير والذين يتجاوزون الحدود هم لوعال (العصافير)، الذين لا يحاسبه الله على معاقبتهم بالقتل، ربما لأنهم تجاوزوا الحدود. بل وأضاف لنا مريد آخر مؤكدا بقول آخر للشيخ حين أشار بغليونه أمامه على شكل مستقيم وقال: (هذي طريق أبيكم واللي دار هاك ولا هاك، راسو طار) بمعنى سيعاقب بالموت.

ويرونه أيضا متجاوزا للحدود الجغرافية، وهنا يدخل العنصر الثاني من الثلاثية البيرسية أي "التواصل" وهو الدور الاجتماعي الذي كان يقوم به، مثل إنقاذ الناس في بلاد أخرى، وهذا حدث كثيرا مع الشيخ النعاس، حيث شوهد مرة في ألمانيا، ومرة رآه المريد عبدالقادر-ب في باريس، حيث ساعده في أمر هناك، لم يبح المريد به معتبرا الأمر سرا بينه وبين الشيخ. وشوهد الشيخ أيضا مرات عديدة في الحج، ورآه هناك كثيرون. كل هذا والشيخ النعاس ماكث في غرفته لا يغادرها عيانا. وهنا يمكننا التساؤل عن هذه الحدود هل هي منع للداخل بأن يدخل أم هي على رأي بيير بورديو منع للخارج من أن يخرج، وذلك حين قال: "نجد الحد، الحدود المقدسة، فعن سور الصين العظيم، كان "أوين لاتيمور" يقول أن وظيفته لم تكن الحيلولة دون الأجانب ودخول الصين بل الحيلولة دون الصينيين والانطلاق خارجا: إنها أيضا وظيفة كل الحدود السحرية... إنها أيضا إحدى وظائف فعل المؤسسة: الإحباط الدائم لمحاولة العبور، التجاوز، الهروب والاستقالة"(Bourdieu, 1982, p. 128) .

أما الطقس المرتبط بالحدود في العنصر البيرسي الثالث "الدلالة"، فهو مثلا إلقاء التحية على سرير الشيخ، كأنها تحية موجهة للشيخ نفسه، غير الحاضر بجسده، بل حاضر بحضوره، وعدم تجاوز حد حفرة "عين الحياة"، والخوف المرتبط بتجاوز خطوة واحدة باتجاه السرير. وهو في مثل آخر "التسليم" كإذعان مطلق وعدم الاعتراض، حيث يكون "المريد" في حالة تجاوز لحدود المنطق –مثلا- ولحدود العقل مثلما حدث مع العجوز "أم هاني" في حكايتها مع "الماغاطوس"، فقد شربت هذا "السم" في تسليم مطلق للشيخ ووثوق تام في أنه سينقذها. إن هذا "التسليم" كعنصر محيطي ثابت وضروري مرتبط بوجود التمثل "المركزي"، يوجد بوجوده، وينعدم بانعدامه.

6.الخاتمة:

من خلال هذا التحليل السيميوطيقي، القارئ للمعنى، في بعض تمثلات المريدين للشيخ المجذوب عبدالرحمن النعاس بورقبة، داخل فضائه في المجتمع المحلي، وفق رؤية "هابرماس"، ومقاربة ثلاثية شارل ساندرس بيرس، ومقاربة "النواة المركزية" لجان كلود آبريك، يتبين لنا أن هذا الفضاء تبنيه التمثلات الاجتماعية، وتجعله يستمد استمراره وبقاءه بفعل إنتاجها وإعادة إنتاجها، للحفاظ على ديناميكية "الرأسمال الرمزي"، تلك التمثلات التي صارت تعمل تلقائيا (أي وفق الهابيتوس Habitus) ضمن آليات اشتغال سميناها "آليات الهيمنة والخضوع"، التي نكاد نجزم –بحذر ابستمولوجي- بأن كل فضاءات المقدس والهامشي تعمل وفقها.

والنتيجة الأخرى الذي جعلنا هذا البحث ننتبه لها، هي أنه لا يمكن للتمثلات الاجتماعية داخل هذا الفضاء أن تنفصل عن "تمثلات" المريدين لحكاية الكرامة، بما هي فعل خارق للمعتاد، أي عمل من خوارق العادات، يفارق المألوف والعادي والمتعارف عليه (وهي شرط أساسي لولاية المجذوب والاعتقاد في أنه ليس مجرد مجنون)، سواء بما في ذلك التمثلات للنواة المركزية "المجذوب"، أو التمثلات "للعناصر المحيطية"، فالخطاب –بما هو تجاوز للنص- هو الذي يؤثث فضاءات المقدس ومنه تستمد مشروعيتها.

وأخيرا إننا لم نتوسع في تعداد كل "العناصر المحيطية" الممكنة، لأن طبيعة المقال تفرض ذلك. وقد تكون لنا عودة إليها في كتاب مثلا أو مؤلف جماعي، يتم فيه قراءة واستقراء جلها بمقاربات أخرى أو بهذه المقاربات نفسها. لكن حسبنا في هذا المقام، أننا خطونا خطوة بسيطة أولى في هذا الاتجاه من شأنها أن ترسم للباحثين المقبلين في هذا المجال معالم سبيل بحث سوسيو-أنثربولوجي جاد، بكر، متميز ومثمر.

7- المراجع:

1) **Bourdieu, P. (1982). Ce que parler veut dire. Paris: Fayard.**

2) **Touraine, A. (1974). Pour la Sociologie. Paris: Editions le Seuil.**

3) أبو القاسم سعدالله. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي (المجلد الجزء الرابع). بيروت، لبنان: دار الغرب الإسلامي.

4) المرنيسي فاطمة. (1998). نساء على أجنحة الحلم. (ترجمة، فاطمة الزهرة أزرويل،، المحرر) الدار البيضاء، المغرب : منشورات الفنك.

5) جيرار دولودال. (2004). السيميائيات أو نظرية العلامات، . (ترجمة، عبدالرحمن بوعلي، المحرر) اللاذقية، سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع.

6) يورغن هابرماز. (2010). إتيقا المناقشة ومسالة الحقيقة. (ترجمة، عمر مهيبل، المحرر) بيروت، الجزائر، لبنان، الجزائر: الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف.

الملحق: صورة الشيخ النعاس بورقبة:

الشيخ النعاس.. لحظة تأمل